



إشراف: أ.د. نهلة الصعيدي (*)

وَلَكُمْ فِي البَحثِ العِلمِيّ
حَياةٌ يا أُولِي الأَلْبَاب

أ.د. محمود توفيق مُحمد سَعد[1]

جلِيٌّ لا يخفَى أنَّ حركةَ الحياةِ متجدّدةٌ تجدّدَ الزَّمانِ، ممَّا يُوجِبُ أن يعيشَ المرءُ زمانَه، وأن يعمُر حياتَه بما هو صَالحٌ مُصلِح، وتجدُّدُ الحياةِ مقتضٍ تجدّدَ الحاجاتِ والمُشكلاتِ، ومَا يَصلُح لِما مضَى قد لا يَصلُح لِما هُو قائمٌ، فضلًا عَن أن يصلُحَ لِما هُو قادمٌ، ومِن ثَمَّ كان فريضةً على أبناءِ كلِّ زمانٍ ومكانٍ أن يعالِجوا حاجاتِهم ومشكلاتِها بما يلائِمُ الزَّمان والمكانَ الّذِي فيه يَعيشون، فمِن الإفسادِ الاستغناءُ بما كان عمّا يَجبُ أن يكونَ، فيُقال: إنّه يسعُنا ما وسع أجدادنا، هذِه مقولةٌ لا تصلُح فِي كلّ شيْءٍ، هي لا تصلُح إلّا فِي ثلاثةِ أبوابٍ:

- **باب العقيدةِ الصّحيحةِ الصّريحة.**

- **باب الأحكام القطعيّة في الشريعة**، أمّا الأحكام المتغيرة لارتباطها بتجدد حركة الحياة، فلا بدَّ فيها من تجدّد الاجتهادِ مِن أعيانِ علماءِ الشّريعةِ وحدَهم.

- **باب محاسن الأخلاق.**

ما عدا هذِه الثّلاثةَ الأبوابَ يجبُ أن يكونَ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ وقومٍ رؤيةٌ متجدّدةٌ لواقعِ الحياةِ الّتي يَعيشُونَها، وهِي لا تكونُ إلّا متجدِّدةً لِتجدُّد حركةِ الزَّمانِ.

(*) مستشار شيخ الأزهر لشئون الوافدين، ورئيس مركز تعليم الطلاب الوافدين.
(١) عضو هيئة كبار العلماء.



وهذه الرّؤية المتجدّدة المحيطة المتعمّقة لوقائع الحياةِ ستكتشِف مشكلاتٍ متنوّعةً في كلّ مجالٍ من مجالاتِ الحياة، وفي درجات تعمقها وشمولها ونحو ذلك.

وبقاءُ هذه المُشكلاتِ على ما هِي عليها يُفضِي إلى نموّها، فطبيعةُ أيّ مشكلةٍ مُحسّة أوْ غير مُحسّة كالمرض، بلْ هِي في الحقيقةِ مرضٌ، إذا ما تُرك استفحلَ، واستعصَى علَى الشّفاء، بل وعلى المعالجةِ، وإذا ما بُودِر باكتشافِه، والتّعرفِ على أسبابِه وعلَى ما يُمكن أن يعالجَه، وأن يوقفَ نموه وتأثيرَه ثمَّ يعمل على اجتثاثه، إذا لَم يمكن ذلك، فإنَّ الحياةَ لا محالةَ إلى فسادٍ.

مِن هُنا كان فريضة عَينٍ – نَعم عَين – علَى أُولِي الألبابِ أن يرقبوا واقعَ حياتِهم، وأن يقوموا بتفتِيشها، كما يرقُبون صحتَهم حِسًّا ومعنى، ويتجسَّسون، بلْ يحسَّسون ما يمكِن أن يكونَ ثمرةَ مُشكلةٍ فِي حياتِهم الخاصّةِ والعامّة؛ ليبادِروا علاجَها قبل أن تَستحيلَ إشكالًا، ثُمَّ تَنتهي إلى أن تكونَ إشكاليّة، لا سبيلَ إلى شيْءٍ مِن علاجِها إلّا بما هُو مثلُها، فغيرُ قليلٍ مِن الأمراضِ إذا أُهمِلت استحالَت إلى أن يكونَ عِلاجُها «البَتر».

وليس في مجالٍ مِن مجالاتِ الحياةِ إلّا وفيه مشكلةٌ أو بادرةُ مشكلَة؛ وذلك ما أُقيمَت علَيْه الحياةُ، فهُو مِن فِطرتِها أوْ إنْ شِئتَ مِن حِليَتِها، فحياةٌ بغيرِ مشكلةٍ حياةٌ لا طَعمَ لها ولَا لَونَ.

فحياتُنا الَّتي نعيشُها سمَّاها خالقُها وخلقنا فيها «الحياة الدُّنيا» الأصلُ فيها السَّعيُ والكَدّ، وحينَ تنتهِي مشكلات المرء أوْ توهّم ذلك فقد انتهت حياته.

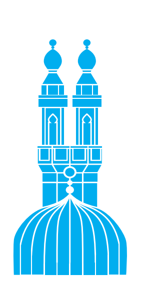
﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾ (طه: ١١٧)

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ (البلد: ٤)

مِن هنا كان البحثُ فِي مجالاتِ الحياة المتجدّدة المتعدّدة المتنوّعةِ عن مشكلاتِها وعَن طرائقِ حلها وفق منهج موضُوعيٍّ يُفضِي إلَى تحقيق (الطلبة) و(البُغية) ضرورة حياةٍ، لا يمكن أن تتحقّق بدونِه رسالةُ الاستخلافِ الّذي خُلِق لها الإنسانُ ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ (البقرة: ٣٠)

فالبحثُ الموضوعيُّ المُنتظِم وفق أصولٍ وضوابط ومهاراتٍ متنوِّعة وأدواتٍ متعدِّدةٍ وخبراتٍ واسعةٍ معمَّقةٍ هُو ضرورةُ حياة، وضرورة قيامٍ بالرّسالة الاستخلافيّة.

كلّا، إنّما هُو ينتمِي إلى بابٍ مِن أبوابِ العبادةِ. فقولُه – سبْحانَه وتَعالَى – ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)



دالٌّ على أنَّ كلَّ حركةٍ لا بدّ أن تكونَ عبادةً، بكلّ ما تحملُه هذه الكلِمة مِن استحقاقاتٍ.

ما مِن أمرٍ مِن أمور أولِي الألباب إلّا وبمقدورِهم أن يُدخلوه في بابِ العِبادةِ يتزلَّفون به إلى ربّهم - سبْحانَه وتَعَالَى - وللفعلِ العبادِي شروطٌ:

شرطان منهما شَرطا صحةٍ، وثلاثةُ شروط إحسان:

شرْطا الصّحة: صفاء القصد، واتباع الشَّرع، وهذا التَّقصيرُ في أيٍّ يفسدُ الفعل. ويرَدُّ على صاحبِه ردًّا مقيتًا، ويستحيلُ الفعلُ من كونِهِ سبيلًا إلى المثوبة الحُسنَى إلى أن يكونَ سبيلًا إلى العُقوبةِ السوأى.

وشروطُ الجودةِ والجود والإحسانِ ثلاثة:

- فتوةُ العزم.
- وإتقانُ الصّنع.
- وديمومة النّفع.

بمقدار تحقّق هذه الشّروط تكونُ جودةُ الفعلِ العباديّ ووفرة ثمارِه ومنافعِهِ.

وهي كما ترَى ذاتُ استحقاقاتٍ لا يُمكِن تحقيقُها إلّا بعلمٍ صَحيحٍ صريح.

وفي السّنة النّبوية كثيرٌ من النّصوص الشّريفة الدّالة على أن كثيرًا ممّا نتوهّم أنّه أفعال عادةٍ، ما يهدِي إلى أن بملكِكَ عقيلًا فقيهًا أن تُحيلَها إلى أفعالِ عِباديّة وتزلّف إلى ربّك - سبْحانَه وتَعَالَى - ومَن دونك فِي طبقاتِ طلبِ العلم مقتدرٌ عَلى أن يكونَ له بها علمٌ.

ولما كان البحثُ العلميُّ ضرورةَ حياةٍ، ولم يكن ليتحقق للأمّة الإسلاميّة عزّها إلا به كيما لا تكون مفتقرةً إلى منتج بحوثِ غيرها من الأمم كان فريضة ما يتوقفُ عليه حسنُ الوفاء بحقّ ذلك البحث المنقذ من الذلّة والخزيّ.

وهذا لا يكونُ إلّا بالعلم الصّحيح الصَّريح بحقيقة البحثِ العِلميّ وأصولِه، وضوابطِه وأدواتِه ومهاراتِه وخبراتِه وأخلاقِه.

ذلك عند التحقيق يجب أن يكونَ تحقيقه حقًّا لكلّ مولًى على وليّه، والسنة النبوية قد أذنت فينا: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»(٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (٨٩٣).



فليس أحدٌ إلّا وهو راعٍ غيرَه، ومرعيّ من غيرِه، وكلُّ مسئولٌ، وممّا هو مسئولٌ عنه من شأن من يرعَى من البشر: «عقلُه» بل هو مقدمٌ على «دينه» فبعقله يكون دِينُه، ولا يكون العقلُ قويمًا يصلح أن يكونَ راعيًا غيره، بل ولا يصلح أن يكونَ مرعِيًّا مثمرًا إلَّا إذا كان قويمًا، ولن يكون قويمًا إلّا إذا استشعر في كلّ أمرٍ أنّ فيه تساؤلًا، وأنّ هذا التّساؤل بحاجة إلى جوابٍ، فمَن لم يستشعرْ في أمرٍ من أموره تساؤلًا، فما عقله بقويم. التّساؤل روح العقلِ وجرثومته، وإذا ما كان عقلٌ متسائلٌ وجب أن يكون هنالك سبيلٌ إلى بلوغ جوابٍ صَحيحٍ صريحٍ عن ذلك التّساؤل.

وهذا يهديك إلى وجهٍ مِن وجوهِ الحكمةِ فِي تعريفِ الإنسانِ بأنّه «حيوان ناطقٌ» وعليك أن تستحضرَ قولَ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾

(العنكبوت: ٦٤)

لتفقهَ معنى كلمة (حيوان) في هذا التّعريف، وقولهم: (ناطق) إنّما هو ملزوم قولِهم: (مفكّر)، فهم يريدون «الإنسان حيوانٌ مفكّر» وكان الإعرابُ بـ«ناطق» إيماءً إلى أمرين جليلين:

الأول: أنّه لا يكونُ نطقٌ إلّا وليدَ فكرٍ، ومقتضَاه، فمَن نَطقَ بغيرِ فكْرٍ، فمَا هُو إلى عَالمِ الإنسانِ فِي شيْءٍ، فلْيَبحث له عَن عالمٍ آخرَ غيرِ عَالم الإنسانِ لِينتمِي إليْهِ، وهذا يهدِيك إلَى ما يَجبُ أن ينتمي إليه غيرُ قليل ممّن ترَى عينُك وتسمعُ أذنُك .

الآخر: أنّ التّفكيرَ لا يُجدِي إلَّا إذا كان ما يُعربُ عنه، وإلّا إذا كان المعربُ عنه على قدرِه، فليس الأهمّ أن تفكر فحسب ثم تنفضُ يديك، بل لا بدّ أن تجمع بين الأمْرين معًا:

- تفكير قويم محيطٌ متغوّر.
- تعبيرٌ صحيح صريح متآخ مع قدر تفكيرك.

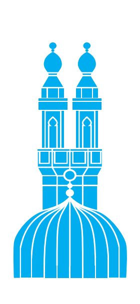
تلك مسئولية جسيمةٌ في ذاتها، خطيرة في مآلاتها، والتّقصير فيها تقصيرٌ في تحقيقِ ما به يكونُ قوام الإنسان.

وقوامُ الإنسان يتمثّلُ في قوام جسدِه وقواه المعنويّة المودعة في هذا الجسد: النّفسُ، والعقلُ، والقلبُ، والروح.

والهديُ النّبويّ قد أثَّم التّقصير في تحقيق قوام كلٍّ: الجسد وقواه المعنويّة.

هدَت السنّةُ النّبويّة إلى أنه «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُ»[٣].

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (٩٩٦).



وممّا هو مقدمٌ إعالته وإقاتتُه (النفسُ، والعقلُ، والقلبُ، والروح) بل الإبلاغ في الاعتناءِ بإعالةِ هذه مقدمٌ على الاعتناء بإعالة الأجساد وإقاتتها.

وكمالُ الحرصِ على طِيبِ قوتِ هذِه القُوَى عديلُ كمالِ الحرصِ على طِيبِ قوتِ وعائِها: الأجساد.

وعلاجُ ضَعفِ الأجسادِ أوْ مرضِها أيسرُ مِن علاجِ ضعفِ هذِه القُوَى ومرضِها.

وقوتُ هذه القوَى إنما هو في العلمِ النَّفيعِ المخرجِ مِن الظّلماتِ إلَى النُّورِ، المُخرجِ مِن المشكلاتِ وعويصِ التّساؤلات فِي كلّ جانبٍ مِن جوانبِ الحياةِ إلى النّور: نورِ المَعرفةِ والعِلم والاستثمارِ الحَسينِ المُحرّرِ مِن رِقّ الاحتياجِ إلى الآخرين المقيمِ في سماوات عزّ بذل الإعانةِ للآخرين، وكلّ ذلك لا يكونُ إلّا بتحقيقِ مهارةِ «البحثِ العلميّ» فِي كلِّ جانبٍ مِن جوانبِ الحياةِ؛ ومن ثمَّ كان «البحث العلمي» ضرورة حياة ماجدة، لا تتحقق إلّا بتميزه، فهل لنا أن نجعل ذلك ممّا نَتَزَلَّفُ بِه إلَى رَبّنا – سُبْحانَهُ وبِحمْدِه؟!

واللهُ الهادِي إلى سَواءِ السَّبيلِ.

